النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية

أو

سيرة صلاح الدين

بهاء الدين بن شداد

تحقيق

الدكتور جمال الدين الشيال

الطبعة الأولى (١٩٦٤)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المحقق

مؤلف الكتاب هو بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم شُهر بابن شدَّاد ، لأن شدَّاد جده لأمه ، وقد توفى أبوه وهو طفل صغير ، فربى فى كنف أخواله بنى شداد ، ولهذا نسب إليهم .

ولد فى الموصل سنة ٥٣٩ هـ (١١٤٥ م) وتوفى بحلب سنة ٦٣٢ هـ (١٢٣٩ م) ، فهو قد عمَّر وعاش ثلاثا وتسعين سنة أى قرابة قرن من الزمان .

تلقى علومه الأولى فى الموصل ، فحفظ القرآن وقرأ على شيوخ الموصل كتباً فى علوم الحديث والتفسير والفقه والقراءات والأدب ، وكانت المدرسة النظامية فى بغداد تجتذب إليها وقتذاك طلاب العلم من مختلف أنحاء العالم الإسلامى ، فارتحل إليها مؤرخنا ابن شداد ، وترتب فيها معيداً بعد وصوله إليها بقليل ، وكان ذلك فى سنة ٥٦٦ هـ (١١٧١ م) أى وهو فى السابعة والعشرين من عمره ، وظل يشغل هذا المنصب نحو أربع سنوات حيث عاد إلى بلده الموصل ، وعين هناك مدرساً بالمدرسة التى أنشأها القاضى كمال الدين أبو الفضل محمد بن الشهرزورى ، ولازم ـ كما يقول ابن خلكان ـ « الاشتغال وانتفع به جماعة » ، وعلت مكانته وارتفع ذكره لما اشتهر به من الحكمة ورجاحة العقل والاتزان فى التفكير ، ولهذا نجد أتابك الموصل يعهد إليه بالسفارة إلى الخليفة العباسى فى بغداد ، وإلى صلاح الدين[1] وكثير من الحكام المجاورين فى أمور خطيرة من أمور الدولة .

وفى سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٨ م) سافر إلى مكة وأدى فريضة الحج وزار قبر الرسول عليه السلام ، وكان يزمع فى عودته أن يزور بيت المقدس ـ وكان قد استردها البطل صلاح الدين ـ ، ولكنه نزل أولاً بمدينة دمشق ، وكان صلاح الدين يحاصر قلعة كوكب ، وعلم بوصول ابن شداد إلى دمشق ، وكان يعرفه معرفة أكيدة منذ اتصل به فى سفاراته السابقة ، فاستدعاه إليه ، « فلما دخل عليه قابله بالاكرام التام ، ومازاد على السؤال عن الطريق : ومن كان فيه من مشايخ العلم والعمل ، وسأله عن جزء من الحديث ليسمعه عليه ، فأخرج له جزءاً جمع فيه أذكار البخارى ، وقرأه عليه بنفسه » .

وقد شرح ابن شداد فى كتابه هذا « النوادر السلطانية » كيف اتصل بخدمة صلاح الدين ، قال :

« ولما ودعته ذاهبا إلى القدس خرج لى بعض خواصه ـ عماد الدين الكاتب الأصفهانى ـ ، وأبلغنى تقدمه إلىّ بأن أعود أمثل فى خدمته عند العود من القدس ، فظننت أنه يوصينى بهم إلى الموصل » .

---

(١) انظر أخبار هذه السفارات فيما يلى هنا ، ص ٦٥ و ٧٠ و ٨٥ .

وأتم ابن شداد زيارته للقدس وعاد إلى دمشق ، وفى عزمه أن يستأذن من صلاح الدين فى العودة إلى بلده الموصل حيث يترك دنيا الوظائف ويعتكف للدراسة والعبادة ، وكان ابن شداد قد ألف أثناء مقامه فى دمشق هذه المرة كتاباً فى الجهاد وأحكامه وآدابه ، فقدمه لصلاح الدين « فأعجبه ، وكان يلازم مطالعته[1] » .

ويستطرد ابن شداد فيروى كيف منعه صلاح الدين من العودة إلى الموصل ، وألحقه بخدمته فيقول : « وما زلت أطلب دستوراً فى كل وقت وهو يدافعنى عن ذلك ، ويستدعينى للحضور فى خدمته فى كل وقت ، ويبلغنى على ألسنة الحاضرين ثناءه علىَّ وذكره إياى بالجميل . . . . ثم سيَّر إلى مع الفقيه عيسى ، وكشف إلىّ أنه ليس فى عزمه أن يمكننى من العود إلى بلادى ، وكان الله قد أوقع فى قلبى محبته منذ رأيته وحبه الجهاد ، فأحببته لذلك ، وخدمته من تاريخ مستهل جمادى الأولى سنة أربع وثمانين » .

وقد عين صلاح الدين بهاء الدين بن شـداد قاضياً لعسكره وللقدس الشريف ، وظل بهاء الدين فى خدمته وملازماً له لا يفارقه ليلاً أو نهاراً إلى أن أدركته الوفاة ، وكان مقيماً هو والقاضى الفاضل إلى جوار صلاح الدين أثناء مرضه الأخير ، ووصف اللحظات الأخيرة التى انتهت بوفاة هذا البطل العظيم وصفاً مؤثراً .

وبعد وفاة صلاح الدين اتجه ابن شـداد إلى حلب ولعب دوراً كبيراً فى التقريب بين الأخوة أولاد صلاح الدين وكانوا جميعاً يرجعون إلى رأيه ويستمعون إلى نصحه ، وقد عينه الملك الظاهر صاحب حلب فى سنة ٥٩١ هـ قاضياً لمدينة حلب ومشرفاً على أوقافها ، يقول ابن خلـكان « وكانت حلب فى ذلك الزمان قليلة المدارس ، وليس بهـا من العلماء إلا نفر يسير ، فاعتنى أبو المحاسن المذكور بترتيب أمورها ، وجمع الفقهاء بها ، وعمرت فى أيامه المدارس الـكثيرة » .

وكان الملك الظاهر قد قرر لابن شداد إقطاعاً جيداً يدر عليه مبلغاً كبيراً من المال ، ولم يكن ابن شداد قد تزوج ولم تـكن له أسرة أو ولد ، فتوفرت له ثروة لها قيمة ، فعمر بها مدرسة فخمة لتدريس المذهب الشافعى بالقرب من باب العراق فى مدينة حلب ، قبالة مدرسة نور الدين محمود زنكى ، وبنى إلى جانبها دارا للحديث ، وأنشأ بين المدرستين تربة ليدفن بها بعد وفاته .

ومنذ بنيت هذه المدرسة ومنـذ رتب ابن شداد دروسه بها أصبحت لحلب منزلة علمية مرموقة تجذب إليها طلاب العلم من مختلف أنحاء العالم الإسلامى ، يقرر هذه الحقيقة المؤرخ ابن خلـكان ـ وقد كان واحداً ممن سافروا إلى حلب خصيصاً للتلمذ على القاضى ابن شداد فى مدرسته ـ فيقول :

« ولما صارت حلب على هذه الصورة قصدها الفقهاء من البلاد ، وحصل الاشتغال والاستفادة ، وكثر الجمع بها » .

(١) انظر كذلك ما يلى هنا ص ٢١ و ٨٦

وقد لعب ابن شداد دوراً كبيراً فى التوفيق بين أفراد البيت الأيوبى فى مصر والشام كلما نشب نزاع بين بعضهم والبعض الآخر ، ولهذا كان دائم التنقل بين حلب والقاهرة لتحقيق هذا الهدف ، وتذكر المراجع أنه وفد على القاهرة فى هذه المهام وأشباهها فى السنوات ٥٩٣ و ٦٠٨ و ٦١٣ و ٦٢٩ هـ .

وظلت لابن شداد الـكلمة النافذة والرأى المطاع فى عهد الملك العزيز بن الظاهر صاحب حلب ، ولما خطب العزيز ابنة الملك الـكامل محمد صاحب مصر كان ابن شداد على رأس الوفد الذى سافر إلى القاهرة فى سنة ٦٢٩ لإحضار العروس ومرافقتها إلى القاهرة .

غير أن السنين كانت قد نالت منه وأصابته الأمراض ووهن الشيخوخة ، فلزم مكاناً دافئاً يقيم فيه متدثراً ، لايقوم إلا لأداء فريضة الصلاة ، ويلقى فيه بعض الدروس على وفود أصدقائه وزواره وتلاميذه الذين يترددون عليه ، وقد صحبه ولازمه فى أيامه الأخيرة المؤرخ ابن خلـكان ، وقدم لنا فى الترجمة التى أرخ فيها لحياة ابن شداد فى كتاب : « وفيات الأعيان » صورة رائعة للعالم الشيخ الذى أضعفه المرض وأكدته الشيخوخة ، قال :

« وكنا نسمع عليه الحديث ، ونتردد إليه فى داره ، وقد كانت له قبة تختص به ، وهى شتوية ، لايجلس فى الصيف أو الشتاء إلا فيها ، لأن الهرم كان قد أثر عليه حتى صار كفرخ الطائر من الضعف ، لايقدر على الحركة للصلوات وغيرها إلا بمشقة عظيمة ، وكانت النزلات تعتريه فى دماغه ، فلا يفارق تلك القبة ، وفى الشتاء يكون عنده منقد كبير فيه من الفحم والنار شىء كثير ، ومع هذا كله لايزال مزكوما وعليه الفرجية البرطاس والثياب الـكثيرة ، وتحته الطراحة الوثيرة فوق البسط ذوات الخمائل الثمينة ، بحيث إنا كنا نجد عنده الحر والـكرب ، وهو لا يشعر به لـكثرة إستيلاء البرودة عليه من الضعف ، وكان لا يخرج لصلاة الجمعة إلا فى شدة التميظ ، وإذا قام إلى الصلاة بعد الجهد يكاد يسقط .

ولقد كنت أنظر إلى ساقيه إذا وقف للصلاة كأنهما عودان دقيقان لا لحم عليهما ، وكان عقيب صلاة الجمعة يسمع المصلون عنده الحديث عليه وكان يعجبه ذلك ، وكان حسن المحاضرة ، جميل الذاكرة ، والأدب غالب عليه ـ إلخ » .

وقد تتلمذ على ابن شداد ـ عدا ابن خلـكان ـ عدد آخر من كبار المؤرخين المعاصرين ، منهم أبو شامة صاحب كتابى « الروضتين » و « الذيل على الروضتين » ، وقد ترجم له فى الـكتاب الأخير فى وفيات سنة ٦٣٢ هـ ، قال :

« وفيها توفى القاضى بهاء الدين بن شداد بحلب ، واسمه يوسف بن رافع بن تميم ، وكان من رؤسائها ، وكان للناس به نفع ، وكنت قد اجتمعت بابن شداد بدمشق وأجاز لى جميع ما يرويه ، ثم سمعت عليه بمصر وعند قبة الإمام الشافعى ـ رحمه الله ـ سنة ثمان وعشرين وستمائة » .

ومنهم جمال الدين بن واصل مؤرخ الدولة الإيوبية وصاحب الموسوعة الكبيرة : « مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب » ، ففى سنة ٦٢٧ كان ابن واصل قد سافر إلى حلب ، ولبث بها نحو عامين تردد فى خلالها على مابها من مدارس ومكتبات ، واتصل بمن فيها من علماء بارزين وخاصة القاضى للمؤرخ بهاء الدين بن شداد ، والشيخ نجم الدين بن الخباز ، والشيخ موفق الدين بن نفيس ، ويبدو أنه أفاد من هؤلاء الشيوخ فوائد جمة ، فقد كان يعتز بهذه الزيارة فيما بعد ، ولهذا ذكرها فى كتابه « مفرج الكروب » أكثر من مرة .

قال أولا فى حوادث سنة ٦٢٨ : « وكنت فى حلب فى هذه السنة ، قد توجهت للاشتغال بالعلم على الشيخ نجم الدين بن الخباز ، وكان إماما فى المذهب والأصول ، وعلى الشيخ موفق الدين بن نفيس فى علم النحو واللغة ولتحصيل البركة بالقاضى بهاء الدين بن شداد ـ رحمه الله ـ وكان سفرى إلى حلب فى أواخر سنة ٦٢٧ فأقمت بها إلى شعبان سنة ٦٢٨ ، ثم ترددت إلى خدمة القاضى بهاء الدين بن شداد مراراً ، وكان نزولى بمدرسته التى أنشاها بالقرب من داره » . وأشار إلى هذه الزيارة مرة أخرى عند ترجمته لابن شداد بمناسبة وفاته : قال : « وقصدت خدمته بحلب سنة ٦٢٧ وحضرت مجلسه واستفدت منه ، وأقمت بمدرسته التى أنشأها إلى جانب داره ـ رحمه الله ـ نحو سنة وكسر » .

وأشار إليها مرة ثالثة بقوله : « وكان القاضى بهاء الدين يذكر بنفسه الدرس فى مدرسته ، ثم لما أسنّ وضعف بقى المعيدون فى كل يوم يُقرأ عليهم العلم ، ولا يذكر أحد درساً فى المدرسة إلى أن توفى ، وكنت بحلب سنة ٦٢٧ وسنة ٦٢٨ وكان الأمر جاريا على ذلك ، وكانت الرَّبْعَة تحضر فى كل يوم فيقرأ منها ما تيسر ثم يدعو الداعى له »

وحدث أثناء إقامة ابن واصل فى حلب أن احتبس الغيث فخرج الناس للاستسقاء ، وفى مقدمتهم شيخ البلدة بهاء الدين بن شداد ، وقد حضر ابن واصل هذا الحادث وأرخ له بقوله : « واحتبس الغيث فى هذه السنة احتباساً كثيراً بحلب ، وارتفعت الأسعار ، فخرج الناس إلى جبل بانقوسا واستسقوا ، وحضر الاستسقاء نهاء الدين بن شداد ، فجاء مطر يسير بعد ذلك وانحطت الأسعار قليلا » .

وفى سنة ٦٣٢ كان الكتاب قد بلغ أجله ، وارتفعت روح ابن شداد إلى بارئها بعد أن عمّر قرابة قرن من الزمان أو ثلاثا وتسعين سنة على وجه التحديد قضاها فى الدراسة والتدريس والتأليف والعمل الصالح ، ودفن فى تربته التى بناها لنفسه بجوار مدرسته فى حلب .

ومؤلفات ابن شداد ليست كثيرة ، وسنقدم فيما يلى بياناً بالمعروف منها الذى أشارت إليه المراجع ، غير أننا نحب قبل إثبات هذا البيان أن نشير إلى أن مؤرخنا ابن شداد لم يكن الوحيد بين المؤرخين العرب الذى حمل هذا الاسم ، فهناك ابن شداد آخر يشترك مع مؤرخنا فى أشياء كثيرة ، فكل منهما كان يسمى ابن شداد ،

وبهذا الاسم عرفا وأشير إليهما فى المراجع المختلفة ، غير أن مؤرخنا صاحب سيرة صلاح الدين كان يكنى ببهاء الدين واسمه بالكامل بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم بن شداد ، وسميُّه كان يكنى بعز الدين واسمه الكامل عز الدين أبو عبدالله محمد بن على بن إبراهيم بن شداد .

ومؤرخنا بهاء الدين ولد ونشأ فى الموصل ، غير أنه قضى معظم حياته وتوفى فى حلب فى سنة ٦٣٢ هـ ، أما عز الدين بن شداد فقد ولد ونشأ فى حلب ، ولكنه قضى معظم حياته فى القاهرة وبها توفى ودفن فى سنة ٦٨٤ هـ أى بعد وفاة سميه باثنتين وخمسين سنة ، وبهاء الدين كان فقيها ومحدثا ومؤرخاً ، وعز الدين كان مؤرخاً وجغرافياً .

ومع هذا فقد خلط المؤرخون وكتاب السير والبيلوجرافيون بين الرجلين عند إحصاء مؤلفات كل منهما ، ودفعهم إلى هذا الخلط تشابه اسمى كل منهما ونسبتهما إلى حلب واشتغالهما بالتاريخ وتأليفهما فيه ، وكونهما توفيا فى قرن واحد وهو القرن السابع الهجرى (١٣ م) .

وقد سبق المؤرخون والباحثون بإلقاء الأضواء أولا على حياة بهاء الدين بن شداد ، ولهذا كان ولا زال أكثر شهرة من سميه عز الدين ، ولعل هذا يرجع إلى أن بهاء الدين كتب سيرة صلاح الدين . فكانت عناية المؤرخين بدراسة هذه السيرة السبب الأكبر فى شهرة بهاء الدين ، ولهذا نجد الباحثين ينسبون إليه عدداً من مؤلفات عز الدين بن شداد .

وكان أول من وقع فى هذا الخطأ حاجى خليفة صاحب كتاب « كشف الظنون » فقد ذكر كتاب « الأعلاق الخطيرة فى ذكر أمراء الشام والجزيرة »[1] ونسبه إلى بهاء الدين بن شداد لا إلى مؤلفه الأصلى عز الدين بن شداد ، وقد وقع فى نفس الخطأ مؤخون آخرون لأنهم نقلوا عن حاجى خليفة ، فنجد نفس الخطأ عند جورجى زيدان فى « تاريخ آداب اللغة العربية »[2] ، والغزى فى « نهر الذهب »[3] ، والدكتور أحمد أحمد بدوى فى « الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام »[4] .

والكتاب الثانى الذى نُسب خطأ إلى بهاء الدين بن شداد فى حين أنه من تأليف سميه عز الدين هو

---

(١) كشف الظنون ، الطبعة الأولى ، ج ١ ، ص ١٢٣

(٢) ج ٣ ، ص ٦٣

(٣) ج ١ ، ص ١١

(٤) ص ٢٦٥ حيث قال : « كما وضع ابن شداد الحلبى المتوفى سنة ٦٣٢ هـ كتابه الأعلاق الخطيرة فى تاريخ الشام والجزيرة » .

كتاب « تاريخ حلب » ، وأول من أخطأ فى هذه النسبة بروكلمان فى كتاب « تاريخ آداب اللغة العربية » ، فقد ذكره ضمن مؤلفات بهاء الدين وأضاف أنه توجد منه نسخه خطية فى مكتبة بطرسبرج تحت رقم A.M,203[1] ووقع فى نفس الخطأ الدكتور عبد اللطيف حمزة فى كتاب « الحركة الفكرية فى مصر فى العصرين الأيوبى والمملوكى »[2] ، والدكتور السيد الباز العرينى فى كتابه « مؤرخو الحروب الصليبية »[3] .

والكتاب الثالث الذى نسب خطأ إلى بهاء الدين بن شداد فحين أنه من تأليف سميه عز الدين هو كتاب « الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر » ، والمقصود هنا هو الملك الظاهر بيبرس البُندقدارى[4] لا الملك الظاهر بن صلاح الدين ـ صاحب حلب ـ ، وقع فى هذا الخطأ بروكلمان وقال بوجود نسخة خطية من المجلد الثانى من هذا الكتاب فى مكتبة سليم رقم ١٥٠٧ وأنه ترجم إلى اللغة التركية تحت عنوان « بيبرس تاريخى جكندا كى تاريخن أيكنجى جلدى » وطبع فى استانبول سنة ١٩٤١ . وتبعه فى هذا الخطأ الدكتور السيد الباز العرينى فى كتابه سالف الذكر .

هذه كتب ثلاثة تنسب خطأ لمؤرخنا بهاء الدين ابن شداد وإن كانت فى الحقيقة من تأليف سميه عز الدين

أما المؤلفات التى قام بتأليفها فعلا مؤرخنا بها الدين ففيما يلى بيانها .

١ — دلائل الأحكام[5] ، تحدث فيه المؤلف عن الأحاديث النبوية المستنبط منها الأحكام ، مخطوط بالمكتبة الأهلية فى باريس رقم ٧٣٦ .

٢ — ملجأ الحكام عند التباس الأحكام[6] (فى الأقضية) ، مخطوط بدار الكتب المصرية بالقاهرة فى مجلدين (الفهرس القديم لدار الكتب ج ٣ ، ص ٢٩٧ — ٢٩٨) .

٣ — دروس فى الحديث[7] (ألقاها فى القاهرة حين سافر إليها فى سنة ٦٢٩ هـ = ١٢٣١ م لإحضار ابنة الملك الكامل ، محمد عروس الملك العزيز صاحب حلب) ، مخطوط بالمكتبة البودليانية فى أكسفورد .

---

(١) Brockelman : G. der Lit. Araber. Suppl. I. P. 549.

(٢) ص ٣٠٩ .

(٣) ص ٢٠٢ .

(٤) انظر المقدمة القيمة التى قدم بها الدكتور سامى الدهان لكتاب الأعلاق الخطيرة (الجزء الخاص بمدينة دمشق ، ١٩٥٦) .

(٥) ذكره ابن خلكان فى وفيات الأعيان ، وبروكلمان .

(٦) ذكره ابن خلكان وبروكلمان .

(٧) راجع ابن خلكان وبروكلمان .

٤ — كتاب العصا[1] (المقصود موسى وفرعون) ، مخطوط بمكتبة باتنا Patna .

٥ — فضائل الجهاد[2] ، ألفه خصيصاً لصلاح الدين ، مخطوط بمكتبه كوبريللى رقم ٧٦٤ .

٦ — أسماء الرجال الذين فى المهذب للشيرازى[3] :

مخطوط بمكتبة ولى الدين جار الله رقم ٢٥٥ ، نسخ فى القرن التاسع الهجرى ، وكتب بقلم معتاد وبخط قديم ، ويقع فى ٥٢ ورقة بمقاس ١٣ × ١٨ سم ، وتوجد منه نسخة على فيلم صغير رقم ٨٧٢ بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة التابع للجامعة العربية ، وهذا الكتاب لم يشر إليه بروكلمان أو أى مرجع آخر من المراجع التى ترجمت لبهاء الدين بن شداد .

٧ — النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (المعروف بسيرة صلاح الدين) . وقد قام على نشره أول مرة A. Schultens فى ١٧٣٢ — ١٧٥٥ ، ثم أعيد نشره فى القاهرة سنة ١٣١٧ هـ .

ثم ترجمه C. R. Conder. إلى اللغة الانجليزية ، ونشرت الترجمة فى سنة ١٩٨٧ ضمن مجموعة جمعية دراسات حجاج فلسطين، تحت عنوان : The life of Saladin by Beha ad-Din Compared with the Original Arabic and annotatcd with a Preface by ch.Wilson- London.Palestine Pilgrims Text Society 1897.

وهذا ينقلنا إلى الحديث عن أهم مؤلفات بهاء الدين بن شداد وهو هذا الكتاب الذى نقدم له المحاسن اليوسفية والنوادر السلطانية » فهو الذى أكسب مؤلفه هذه الشهرة ووضعه فى صفوف المؤرخين الكبار .

وقد قسم بهاء الدين بن شداد كتابه إلى قسمين :

الأول : فى مولد صلاح الدين ومنشئه وخصائصه وأوصافه وأخلاقه المرضية وشمائله الراجحة فى نظر الشرع.

والثانى : فى تقلبات الأحوال به ووقائعه وفتوحه وتواريخ ذلك إلى آخر حياته .

وقد نص المؤلف فى كتابه على أنه بدأ الاتصال بخدمة صلاح الدين فى شهر جمادى الأولى سنة ٥٨٤ هـ ، وعلى أنه اعتمد عند التاريخ للأحداث السابقة على هذا التاريخ على من يثق به ، أما الأحداث اللاحقة لهذا

---

(١) راجع بروكلمان .

(٢) راجع ابن خلكان ، و Brockelman Pr. Clt. Supp I, p. 550

(٣) انظر : فهرس المخطوطات المصورة بمعهد المخطوطات العربية ، الجزء الثانى ، القسم الأول ص ١١ ، والقسم الثانى ، ص ٢١٢ .